## الفصل الثامن

# أَحِبَّ على كلِّ حال

«أَحِبَّ أعداءك».

**يسوع المسيح عليه السلام**[1]

عندما تابعتُ أخبارَ حرب الولايات المتحدة على العراق، استقرَّ في نفسي الشعور بأنني سأتلقّى مكالمةً هاتفيةً شبيهةً بتلك التي تلقيتُها إبان الحرب في كوسوفو. وقد حدث في شهر كانون الثاني (يناير) 2004 ما توقَّعتُ تماماً: «سيدي، وصلتنا أوامر بشأنك. لقد صدرَ الأمرُ بإرسالك إلى العراق في غضون أسبوعين».

وإذ كنتُ أتوقَّع مثل هذه الدعوة، فقد اجتمعتُ بأعضاء مؤسسة «من القلب إلى القلب»، وكذلك بأعضاء المجموعة الطبيّة المسمّاة «أطباء مهتمّون» التي توفِّر أطباء إسعاف للمجتمعات الصغيرة التي تفتقر إلى الخدمات. وكان لديَّ متَّسعٌ من الوقت قبل الالتحاق يمكِّنني من ترتيب أولوياتي.

اتُّخذت إجراءاتُ التعبئة الأوليةُ في فورت بليس ـ تكساس، واشتملت على أخذ لقاحاتٍ ضد مرض الجمرة الخبيثة والجدري، وتدريبٍ على السلاح، وتوصيات، والتزوُّد ببعض العُدَد والتجهيزات (كالأقنعة الواقية من الغازات والأردية الواقية من الأسلحة

الكيميائية)، وبطاقة شخصية جديدة تحمل عيِّناتٍ من الحامض النووي (دنا) لأغراض التعرُّف، إضافةً إلى أطنانٍ من الوثائق والأوراق.

وبمزيجٍ من العواطف المختلطة توجَّهتُ إلى العراق. وأذكر أنني عندما استُدعيتُ من قبلُ إلى كوسوفو طبيباً احتياطياً، تمكَّنتْ قواتُ حلف شمال الأطلسي من تهدئة الهجمات المتبادلة بين الألبان والصرب. صحيحٌ أن الوضع بقي متوتِّراً، إلا أن العمليات الحربية لم تكن مستعرةً بالدرجة التي هي عليه في العراق. ذَرَفَتْ عيناي وأنا أودّع زوجتي وأولادي وأفراد أسرتي وأصدقائي وكنيستي وزملائي الذين كنتُ أعمل معهم. على أن قلبي المثقَل هذا كان فيَّاضاً بالحب والحياة والسلام ونُبل المقصد. كنتُ ـ والحق يقال ـ متحمساً ومندفعاً.

أعتقدُ أن كلَّ أفعالنا في الحياة وكلَّ ما يقع لنا فيها جزءٌ من قصةٍ كبيرة. وذهابي إلى العراق هو في حدِّ ذاته جزءٌ من تلك القصة. ففي الليلة التي سبقت مغادرتنا من فورت بليس، خرجتُ بسيارتي إلى البلدة الصغيرة المجاورة، فسمعتُ أجراسَ الكنيسة تُقرع. كانت كنيسةً كاثوليكيةً صغيرةً دخلتُها وجلستُ في الصف الأخير. سمعتُ المصلِّين يرتِّلون فصلاً معروفاً يحضُّ على الحب، وينتهي بهذه الكلمات: «ثمة ثلاثة أمورٍ يتعيَّن علينا تطبيقها: الثقة الثابتة بالله، والأمل المقيم الذي لا ينثني ولا يحيد، والحب المسرف بلا حدود. وأفضل هذه الثلاثة الحب». ولا شك أن هذه هي الصفة التي يجب أن تلازمني في العراق.

وأيّاً كانت مهمَّتي هناك، فقد عزمتُ أن أحبَّ كلَّ مَنْ ألقاه أو أساعده، سواء أكان جندياً أمريكياً جريحاً، أو سجيناً عراقياً، أو مدنيّاً بريئاً. ومهما اختلفت آراؤنا في هذه الحرب، فنحن متَّفقون حتماً على أن كلَّ ما نأتي أو نَذَرُ من عملٍ في هذا الصراع لا بدَّ من أن ينبع من قلبٍ محبّ.

أتاحت لي تجربتي هذه في الكنيسة أن أتمثَّل معنىً عميقاً للسلام وأنا مقبلٌ على مهمَّتي، وكانت رسالةً تحملني على حبّ الناس جميعاً في كل الأوقات.

وعَقَدَ أحدُ القسِّيسين قدّاساً حَضَره عشراتٌ منّا في ركنٍ من المطار قُبَيْل صعودنا إلى الطائرة. وصلنا الكويت في حرّ الشمس اللاهب بعد ذلك بأربعٍ وعشرين ساعة. ثم انتقلتُ جوّاً صباحَ اليوم التالي إلى بغداد. وتمكَّنتْ مؤسسةُ «من القلب إلى القلب» من إرسال كمياتٍ من المضادات الحيوية الطبية تقدَّر قيمتُها بآلاف الدولارات إلى المشافي المحليّة.

حُدِّدت مهمتي في أن أكون الطبيبَ الميداني لكتيبةٍ تتمركز غير بعيدٍ عن الحدود الإيرانية، على رأس فريقٍ طبّيّ ضمَّ خمسةَ أطباء ومساعداً. وكان عليَّ أن أقوم على رعاية الجند في السرادق الطبي، والإشراف على الأطباء وتدريبهم، وزيارة معسكرين للعناية بالسجناء والأسرى. كنّا نعمل سبعة أيامٍ في الأسبوع وفقاً لنظام مناوباتٍ تقع ما بين اثنتي عشرة ساعة وخمس عشرة ساعة يومياً. وكنّا نميِّز يوماً عن يوم بذكر الفعالية الرئيسية التي نؤديها فيه: فهناك يوم غسل الملابس، ويوم الصلوات، وهلمَّ جرّاً.

كنّا مشغولين دوماً بعلاج الجنود الذين يسقطون جرحى في أثناء تبادل النيران والهجمات على قوافلهم وأعمال العنف الأخرى. كثيرون هم الذين قضوا، إلا أن معسكرنا كان محمياً جيد التحصين، فلم نتعرض للهجوم وكنّا ننام جيداً، في حين كانت المعسكراتُ من حولنا عرضةً للهجمات التي تفضي غالباً إلى نتائج مدمِّرة.

وكنتُ أحياناً أوفِّر عوناً طبِّياً لجنودٍ في مهمة. من تلك المهمات عملية تفتيش مباغتة في منتصف الليل، إذ توجَّهتْ في ليلةٍ مجموعةٌ من الدبابات تساندها فصائل هاون وجنود انقضاض إلى قريةٍ يُشتبَه في إيوائها رجالاً كانوا قد هاجموا قاعدةً عسكريةً مجاورة. وعند اقترابنا من القرية أطفأنا أنوارنا واستعملنا مناظير الرؤية الليلية للاسترشاد. وباتِّباع خطةٍ مرسومةٍ دقيقة تعرَّفتْ كلُّ مجموعةٍ من الجنود على المنازل التي يتعيَّن عليها تفتيشها، والترتيب الذي سيجري وفقه التفتيش. وقد تمَّت العمليةُ بسرعةٍ وهدوء وبدون أيِّ صعوبات.

انتهت العمليةُ في غضون ساعتين، وتشكَّك الجُند في وجود شخصين يختبئان وفي حوزتهما كميةٌ كبيرةٌ من الأسلحة. وكان ذلك آخر عهدنا بهجماتٍ تقع على قواعدنا في تلك المنطقة.

وحدثَ أن أصيبَ أحدُ الأسرى بالتهابٍ حادٍّ في بطنه حاولنا علاجه في المستشفى الميداني، لكن حالته كانت أخطر من إمكاناتنا الميدانية، فاضطررنا إلى طلب وسيلةٍ لنقله إلى المستشفى العسكري ببغداد. ومن المعلوم أن وسائط النقل التقليدية تغيب في زمن الحرب،

ويغدو كلٌّ ما هو متحرِّكٌ على الطريق هدفاً محتملاً. ومن ثم تعيَّن تنظيم قافلةٍ من المركبات تضمُّ عشراتٍ من الجنود لهذه الغاية. وبغير ذلك سيهلك المصاب لا محالة. وهكذا كان.

على أن المهمة أُلغيت في اليوم المقرَّر للمسير؛ فقد أصيبت القافلةُ القادمة إلى المعسكر لتقلَّنا بقنبلة، وكانت تلك هي المرة الثالثة التي تُستهدَف فيها قافلةٌ لنا في غضون خمسة أيام. فكان علينا الانتظار إلى أن تمكَّنت إحدى الوحدات العسكرية المجاورة من بسط الأمن، وانطلقنا في اليوم التالي إلى مقصدنا.

لم أملك إلا أن أسأل نفسي، وأنا أجلس في المقعد الخلفي لعربة الهامفي بجوار هذا الأسير العراقي المريض، عينَ السؤال الذي قد يطرحه كلُّ جنديٍّ في تلك القافلة: ما الداعي إلى القيام بكل هذا العمل واحتمال المكاره من أجل شخصٍ نعدُّه من الأعداء؟ بدا الأمر جائراً؛ إذ ربما وجدنا لأنفسنا مسوِّغاً للمخاطرة بحياة أمريكيين لمصلحة أمريكيٍّ آخر؛ أما من أجل عدو؟!

أحسستُ بالوحدة والحنين القوي إلى الوطن وأنا في تلك العربة المصفَّحة أرتدي خمسين رطلاً من العدَّة الميدانية من درعٍ وخوذةٍ وسلاح شخصي، ويقف إلى جانبي أحد الرماة، الذي كان دائم اليقظة، يتحسَّب القنّاصةَ ويشير إلى المركبات العابرة لإفساح الطريق، ويصيح على السائقين الذين لا يستجيبون. وكانت قافلتنا تتحرك بأقصى سرعةٍ ممكنة، وعربات الهامفي تتبع إحداها الأخرى على الأثر بغية

جعل استهدافها أكثر صعوبة، وللحيلولة دون اندساس سيارةٍ مفخَّخةٍ بيننا. وفي طليعة الركب جنديٌّ يراقب المنظومة اللاسلكية ويرحِّل رسائل من العربات التي أمامنا إلى الرامي وإليَّ.

أشفقتُ على نفسي فأخرجتُ مسجِّلتي الصغيرة ووضعتُ السمّاعات على أذنيَّ من تحت الخوذة، وأدرتُها على الموسيقا، خلافاً لما يُنْتَظَر من الجندي من يقظةٍ واحتراسٍ دائمين، إلا أنني قلتُ لنفسي: «وما الضَّير في ذلك ما دمتُ أنا الضابطَ الأعلى رتبةً في هذه القافلة، وليس ثمة من يحاسبني على تصرُّفي هذا».

وكان زوج ابنتي قد حمَّل مسجِّلتي نحواً من ألف أغنية. وإذ اتفق أن كان ذلك اليوم يوم أحد، فقد قرَّرتُ أن أستمع إلى أول أغنيةٍ دينيةٍ أقع عليها، فانطلقت جوقة بروكلين تنشد أغنيةَ لاني وولف «لا شك في تجلّي الربّ على هذا المكان». ومع أنني استمعتُ فيما مضى إلى هذه الأغنية مئات المرات، إلا أن كلماتها في ذلك المكان وذلك الزمان كانت ذات وقعٍ خاصٍّ في نفسي.

وفيما كنّا نسرع صوب بغداد، محشورين في الجزء الخلفي من عربة الهامفي، وحياة الكثيرين في يد القَدَر، أحسستُ أكثر من أي وقتٍ مضى أن الربَّ يرعاني ويكلؤني، وأنه يحوطني بعنايته من بين يديَّ ومن خلفي ومن داخلي.

هَمَلَتْ عيناي، ورحتُ أرقبُ من خلال زجاج النافذة السميك الصامدِ للرصاص المواطنين العراقيين في زيِّهم التقليدي عند أبواب منازلهم، وإلى الأطفال يلهون في الشوارع، وإلى أشجار النخيل

الباسقة في كل مكان. وأيقنتُ هنا كذلك بوجود العناية الإلهية في كل ما تقع عيني عليه في هذا البلد البائس وأهله من شيعةٍ وسُنَّةٍ وأكراد.

ثم تذكَّرتُ مهمةَ الركب الذي يتقدَّم وأنها فيه، وحَضَرَتني على الفور كلماتُ السيد المسيح: «المحبة الكبيرة ليس خليقاً بها إلا ذلك الذي يضحّي بحياته في سبيل الآخرين»، فسرى في كياني شعورٌ عميقٌ بالأمان، وبأن كل الأمور ستسير على خير ما يرام، بقطع النظر عمّا قد ينتظرنا على الطريق. وكم كنتُ فخوراً بكل فردٍ على متن عربة الهامفي في ذلك اليوم؛ إنهم يعرِّضون حياتهم للخطر في مسعىً نبيلٍ ومشرِّفٍ ومقدَّس.

هذا الشعورُ الغامرُ بالأمن والرضا رافقني طوال مدة وجودي في العراق، ولا شأن له بالشجاعة أو الجرأة. واستطعتُ أن أجد لي بين حينٍ وآخر واحةً في ركنٍ منعزلٍ عند طرف المعسكر، وسط بعض الأزهار البريّة. هناك قرأتُ هذه الكلمات من الكتاب المقدَّس: «لا تقلق، بل استبدلْ بالقلق الصلاة والدعاء؛ ولتكن توسُّلاتك وثناؤك على الربّ وَلِيجَتَك إليه... لقد أدركتُ الآن معنى أن أكون راضياً تماماً في كل ظروفي وأحوالي. فمهما ملكتُ، وحيثما كنتُ، سأستطيع التصرُّف اعتماداً على الخالق الذي فطرني على ما أنا عليه»[2].

انتهت مهمتي في العراق قبل أسابيع من الأجل المقرَّر لها، عندما استجاب فريقُنا الطبي لنداءٍ يتصل بحادث سيارةٍ مروِّعٍ على طريقٍ عام. ولما كان موقعُ الحادث خارجَ المعسكر، فقد تعيَّن علينا الخروج

بلباسنا الميداني وعتادنا الكامل. وكانت ثمة مخاوف من أن يكون الأمر كميناً، لا حادثاً عارضاً، لذلك أُعلمنا أن قوةً للنجدة السريعة (QRF) قد توجَّهت إلى مسرح الحدث لضبط الأمن في المنطقة.

عند وصولنا الموقع، لم تكن قوة QRF قد وصلت بعد، فقد سبقناها إلى الموقع. وكان الأمر يستدعي منّا التصرُّف الفوري بالنظر إلى وجودنا في أراضٍ معادية، وليس معنا سوى جنديَّين لحمايتنا. كان الظلامُ دامساً. وما إن توقَّفت سيارةُ الإسعاف حتى فتحنا أبوابها الخلفية وقفزنا منها. إلا أن ركبتي ـ التي كانت قد أصيبت في الجامعة منذ ثلاثين عاماً ـ لم تتحمَّل ضغطَ القفزةِ تحت ثقل ما أحمل من عتاد، وأنا اليوم في الثانية والخمسين من عمري، فانهارت. على كل حال قمنا بإسعاف ضحايا الحادث وعُدنا أدراجنا إلى المعسكر بسلام. قدَّرتُ أن ثمة التواءً بسيطاً ألَمَّ بركبتي وأنها ستتحسَّن مع الوقت دونما علاج.

بعد أيام، وفيما كنتُ أعمل في غرفة الإسعاف في بغداد، رآني طبيبٌ متخصِّصٌ في تجبير العظام وأنا أتحامل في مشيتي، فأصرَّ أن يفحص ركبتي، وظهرَ أنني أعاني تمزُّقاً في الأربطة والغضاريف، وأن الأمر يحتاج إلى إجراء جراحة سريعة. (فانظر كيف أنني قدمتُ إلى العراق طبيباً، وخرجتُ منه مريضاً.) وفي غضون بضعة أيام كنتُ على متن طائرةٍ نقلتني إلى ألمانيا، ومنها إلى سان أنطونيو/تكساس لإجراء جراحةٍ في ركبتي.

التقيتُ قبيل مغادرتي عدداً من المسؤولين العسكريين للبحث في إمكان عودتي إلى العراق فيما بعد على رأس بعثةٍ باسم مؤسسة «من القلب إلى القلب» لحمل مساعداتٍ إلى العراقيين، ووجدتُ من المسؤولين استجابةً طيبة، إذ تذكَّر بعضُهم ما حدث بعد قضاء مهمّتي في كوسوفو، فباتوا يحترمون البعثات التي تهتم بالخدمات الإنسانية.

كان يوم السبت الذي سبق مغادرتي العراق من أكثر أيام حياتي إثارة؛ فقد كنتُ في جولةٍ طبيّةٍ على المرضى والسجناء في المعسكر عندما استوقفني على انفراد أحدُ الأسرى العراقيين قائلاً إن من العادات العراقية تقديم هديةٍ لعزيز. ويا لدهشتي عندما راح ببطء يخلع خاتمَ زواجه من إصبعه: «هذا خاتم زفافي. لم أرَ زوجتي منذ سنوات، وقد لا أراها أبداً، فقرَّرتُ أن أهديه إليك».

لم أدرِ ما أجيب بادي الرأي، ثم إنني قلتُ: «لا، عليك أن تحتفظ به، فزوجتك تريد منك الاحتفاظ به ولا شك، وسيجتمع الشمل يوماً. ستجدها».

ظلَّت كلماتُه تراود مخيِّلتي؛ فقد قال لي إنه لن يعيش ليراها، لأنه سيُقتَل عما قريب. تعانقنا وتوادعنا باكيَيْن، ثم غادرتُ مجمَّع الأسرى.

بات في مقدوري مناقشة القضايا التي تتَّصل بالحرب، بحكم معاناتي لها ووجودي في مَعْمَعانِها. وكان هدفي الشخصي من تجربتي هذه غايةً وحيدةً هي الخدمة أسديها إلى الصديق والعدو على

السواء، لاسيما وأنني نشأتُ في بيتٍ كان والداي يقرأان الكتابَ المقدَّس، فكنتُ أعجب أيَّما عجبٍ كلما سمعتهما يرتِّلان: «أَحِبَّ عدوَّك»، وأقول: كيف يمكن ذلك؟

يصف الكاتب ويندل بيري هذه الظاهرة في روايته Jayber Crow. يذكر الراوي خيبةَ أمله عندما كانت بلدتُه الصغيرة تتأهَّب لدخول القتال إبان الحرب العالمية الثانية. وكان الراوي متأثِّراً بالعبارة: «أَحِبَّ عدوَّك» كشأني بها.

كَتَبَ يقول: «هل من الممكن أن تكون مؤسساتُ العالَم الكبرى مُحِبَّةً لأعدائها؟ لا أعتقد ذلك، بل لا أظن أن مثل هذه المؤسسات يمكن أن تنظر بعين محبَّةٍ لأي شيء».

ثم يتساءل الراوي: ما سبب هذه الحرب؟

«أعتقد أنها نشأت عندما قصَّرَ الناسُ بعضُهم في محبة بعض، وكذلك في محبة أعدائهم. وكان من يُمن طالعي أنني لم أصبح واعظاً، ومن ثم فلا يتعيَّن عليَّ دخول حربٍ مدَّعياً أن يسوع لم يدعُنا إلى محبة أعدائنا»[3].

إنني عاجزٌ بالفعل عن الانفلات من تلك الكلمات: أَحِبَّ عدوَّك، ولا أفهمها، وأقاومها. ولكن إذا كان مقدوراً لحياتنا أن تسخَّر في خدمة الآخرين، فإن بعض هؤلاء «الآخرين» هم بالتأكيد أعداؤنا.

هذا وقد صيغت كلمات السيد المسيح بكلماتٍ أخرى في كتابٍ بعنوان The Message: «هَبْ حياتك... فما تملكه هو كل ما ستحصِّله. واعلم أنه لن ينصلح حالك إذا بقيتَ قانعاً بذاتك؛ فنفسك لن تقنعك

طويلاً. والحياة ليست تنافساً على الشهرة، بل على الصدق والإخلاص. أَحبَّ أعداءك، ومكِّنهم أن يُظهروا أفضل ما فيك من خصال. إنها فرصةٌ اركبْ موجَتَها وعِشْ حياة الخدمة. أما إذا اقتصرتْ محبتُك على ما هو في ذاته محبَّب، فكيف تتوقع لنفسك مثوبةً؟ عِشْ كريماً، فالكرم يولِّد الكرم»[4].

ولعلي أضيف إلى ذلك ما يلي: بإمكانك «أن تكسب أسباب حياتك» بقدر ما تأخذ من الحياة، وبإمكانك «أن تعيش حياتك» بقدر ما تبذل فيها.

وأعتقد أن فكرة محبة الأعداء تغدو أقرب إلى الأذهان إذا بدأنا ندرك أننا لسنا مدارَ الكون، عندئذٍ نستطيع تجاوز أنفسنا، فتصبح محبتنا لأعدائنا معياراً لمدى جودة أعمالنا.

كتبتْ آن لاموت في تفسير هذا المفهوم، فيما يتصل بمن تعدُّهم أعداءً لها: «إنه يعني أن تحاول احترامهم وتشاركهم في إنسانيتهم ومَواطن ضعفهم. إلا أنه لا يعني أبداً قبولاً مطلقاً لسلوكهم الجائر. وإن احترامك لهم نابعٌ من سببٍ روحيّ عميقٍ يتمثَّل في سعيك إلى تدارك الأمور حتى لا تنحدر إلى الأسوأ»[5].

عندما كان أدولف كورز الرابع فتىً ناشئاً في كولورادو، كَمَنَ سجينٌ فارٌّ لأبيه صباحاً وهو في طريقه إلى العمل. وبعد سبعة أشهر عُثِرَ على رفات الأب قرب موقعٍ لجمع النفايات على بُعد أربعين ميلاً. كانت والدة الفتى قد وصلت إلى حمأة القنوط، فانقلبتْ إلى إدمان الكحول. ثم التحق أدولف بالبحرية الأمريكية، وصار كثير الاهتمام ببناء جسده. وعندما خرج من البحرية التفتَ إلى المال والسلطة.

ثم إنه تعرَّض لحادث سيارة مروِّع، تلاه زواجٌ غير موفَّق. وقد تسبَّب ذلك في حدوث تحوُّلٍ في حياته كبير، فخرج بنتيجة شبيهة بما خرجتْ به شخصيةُ الملاك في قصة تولستوي الرمزية، وهي إدراكه أن العيش بهدف خدمة الآخرين هو مفتاح الحياة السعيدة. غير أن جانباً واحداً في حياته مازال يعذِّبه، وهو كراهيته لقاتل أبيه.

أُلقي القبضُ على القاتل في كندا، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة في كولورادو.

قال كورز: «إنني أكره ذلك الرجل، إلا أنني أستطيع القول من تجربتي إن الكراهية تؤذي الكاره نفسَه أكثر بكثير مما تؤذي الشخصَ الذي هو محلُّ هذه الكراهية».

وبمساعدة بعض الناس، توجَّه كورز في آخر المطاف إلى السجن ليرى قاتل أبيه. رفضَ السجينُ مقابلته، وظلَّ يرفضها ثلاثَ مرات متوالية. فبعثَ كورز إليه برسالة يطلب منه الصفح عمّا أكنَّه له من كراهية طوال سنوات. وأضاف كورز إنه قد صَفَحَ عن الرجل وتجاوزَ كلَّ الأذى والآلام التي سبَّبها لعائلة كورز. وهكذا حلَّت المحبَّةُ في قلب كورز مكان الكراهية[6].

لكن كيف يكون ذلك؟

إنها مسألةُ تغيُّرٍ جذريٍّ نعيشه حالما نبسط أيدينا لمعونة الآخرين، أو كما يقول عالمُ الاجتماع توني كامبولو: «إن المرء ليشعر وهو مقبلٌ على عمل الخير بالعناية الإلهية تحفُّه وتسدِّد خطاه»[7]. وهذا بالضبط ما أعنيه عندما أقول: «أَحبَّ على كلِّ حال»، إذ ما إن نبدأ العمل بنيَّة المحبة، حتى نشعر أننا نحبُّ حقاً وصدقاً.

يقول جيبر كرو: «قد لا يكون لزاماً عليك أن تحبَّ أعداءك، وقد تضطرّ إلى التصرُّف بصورةٍ معيَّنة، وربما اضطررتَ إلى أن تبدأ مبكراً»[8].

على أن محبة الأعداء، أو إظهار المحبة والتصرُّف برغم الظروف والأحوال، منوطةٌ بقرارٍ نتَّخذه؛ فكثيرون من الناس يحجمون عنها لأنهم يجهلون أنها ليست أكثر من خيار، أو أنهم يظنُّون أن الأمر ينطوي على صعوبةٍ كبيرة. والحقيقة أن كلَّ أمرٍ يكون عسيراً جداً إذا اقتصر نشاطُنا حياله على مجرَّد التفكير في تحقيقه، إلا أن الأمور تصبح أبسط كثيراً عندما نعقد النيَّة على السعي إلى تحقيقها، ثم نُتبِعُ النيَّةَ الصادقةَ بسعيٍ فعلي، علماً أن بإمكاننا أن نبدأ حيثما كنّا.

هذا النوع من العمل يتطلَّب قراراً يصبح اتخاذُه ميسوراً مع مرور الزمن. يروي الدالاي لاما خبرَ راهبٍ بوذيّ من التيبت قضى في معسكرات الاعتقال بالصين سجيناً سياسياً مدةَ عشرين عاماً. يقول الدالاي لاما: «عندما سألتُه عن أصعب موقفٍ واجهه في السجن، قال بصورةٍ تثير الدهشة: إنه شعر بالخطر الشديد عندما بدأ يفقد شعور الرحمة تجاه الصينيين»[9].

وفي قصةٍ أخرى لتولستوي بعنوان «Master and Man» يتوجَّه تاجرٌ جشعٌ يدعى بريخنوف وخادمُه المستأجَر الساذج نيكيتا صَوْبَ قريةٍ وسط عاصفةٍ ثلجيةٍ هوجاء. يترك بريخنوف المزلجةَ، وفيها خادمه، ويقرِّر أن يقتحم العاصفة وحده على صهوة الحصان، مدفوعاً بحرصه

على تقديم مصلحته الشخصية. وإذ يعجز عن التقدُّم، يعود إلى المزلجة ليجد نيكيتا وقد أشرف على الهلاك من شدة البرد. يحاول بريخنوف بادئ الأمر حمايةَ الخادم كما لو كان جزءاً من متاعه، إلا أنه ـ وفيما كان يمدّ لخادمه يدَه الدافئة ويشعر أن الحياة بدأت تدبُّ في أوصاله ـ يتغيَّر حاله من الداخل.

يكتب تولستوي: «ثم إنه راح يفكر في أمواله ومخزنه وبيته وتجاراته، ولم يستطع أن يدرك كيف يرضى ذلك الرجلُ الذي يدعوه الناسُ فاسيلي بريخنوف أن يشغلَ نفسَه بأمورٍ كهذه». لقد كانت حياتُه قبل ذلك تقاس بمقدار ما يحصِّله أو يقتنيه لنفسه. إلا أنه تمكَّن أن يحقِّق ذاته حالما قرَّر أن يهبها لنيكيتا[10].

مثل هذا القرار في محبة الآخرين، ولاسيما الأعداء، عرضَ لـ بَدْ آندرسن في أوبيرن ـ كاليفورنيا منذ سنوات، عندما صَدَمَ سائقٌ ثَمِلٌ السيارةَ التي تقلّ كاملَ أفراد عائلة آندرسن وهم في طريقهم إلى الكنيسة في صباح يوم أحد. حملَ آندرسن ولدَه الجريح ذا السنوات العشر بين ذراعيه واندفع به دون أن يدري أنه قد فارق الحياة. وكذلك قضت ابنتُه ـ وعمرها ست سنوات ـ في طريق نقلها إلى المستشفى، وجُرح اثنان آخران من أولاده جراحاً بليغة. كان المشهد على الطريق مروِّعاً حقاً، بحيث أن أولَ ضابط دوريةٍ وصلَ ليعاين موقع الحادث نَظَرَ في داخل السيارة ثم ابتعد لينشغل في تنظيم حركة السير، واستقال من وظيفته في اليوم التالي.

قال تدْ آندرسن أحد الابنَيْن اللذين جُرحا، وهو اليوم أستاذٌ جامعيٌّ مرموق: «كان حزنُ والدي طاغياً حقاً، لكن كيف عساك أن تتصرَّف بعد كلِّ هذا؟»

إن ثمة عامِلَيْن حالا دون شعور عائلة آندرسن بالمرارة والحقد على السائق الثَّمِل الذي قَتَلَ اثنين من أفرادها، أولهما عبارةٌ من الكتاب المقدس كان بَدْ يردِّدها طوال حياته: «أَحِبَّ عدوَّك»، وثانيهما اكتشاف بَدْ أن السائق كان ربَّ أسرةٍ مؤلَّفةٍ من زوجةٍ وولدين، وأن هذه الأسرة تمرُّ بظروفٍ قاسية؛ فالرجل قد فَقَدَ عمله حديثاً ويوشك أن يفقد مسكنَ العائلة المتنقِّل الذي يؤويهم كذلك.

وكان من شأن تلك المحنة أن تدفع بَدْ إلى زيارة غريمه في السجن.

يقول بَدْ: «أخبرتُه أنني لا أنوي إيذاءه أو إيذاء أحدٍ من أهله؛ أخبرتُه أنني قد صفحتُ عنه! فَدَهِشَ وانعقَدَ لسانُه».

وعند النطق بالحكم توجَّه القاضي بالسؤال إلى آندرسن: «ما هو العقاب الذي يستحقه غريمك في رأيك؟»

أجاب آندرسن: «أيّاً كان العقاب، فلن يردَّ ولديَّ إليَّ. من هنا أرى أن علينا، بدلاً من تمزيق أسرته وترك الأسرتين تكابدان خسائر كبيرة، أن نكون له عوناً».

وحَكَمَ القاضي على الرجل بقضاء عطلة نهاية الأسبوع في السجن مدةَ ستة أشهر، بصورةٍ تمكِّنه من البحث عن عملٍ جديدٍ لإعالة أسرته.

يعقِّب آندرسن قائلاً: «ما كان بإمكاننا أن نفعل ذلك لولا وجود روح الحكمة؛ فقد أخبرني شخصٌ كان شاهدَ عيانٍ على الحدث، أنه لو كان مكاني لقَتَلَ السائقَ الثَّمل بالتأكيد ساعةَ وقوع الحادث وفي مكانه. لكن محبة الربّ تحجزك عن الردّ بتلك الطريقة».

إن أمثلةً كهذه تجعلني أجزم أو أكاد أنه بالممارسة والرغبة وترويض النفس، يصبح من الممكن أن يحبَّ المرءُ عدوَّه!

عندما انهار نظامُ التمييز العنصري في جنوب إفريقية، كُلِّفَتْ هيئةُ الحقيقة والوفاق بمهمة الإصلاح بين السود والبيض ونشر الوئام بينهم عن طريق إقامة العدل وإنزال العقاب بالمتجاوزين. يُذكَر أن جون رُشْ في كتابه Choosing Against War يصف حالة امرأةٍ سوداء قُتِل ولدها رمياً بالرصاص على يد رجال شرطةٍ بيض، ثم أضرموا النار في جثته واحتفلوا حولها. وبعد سنوات أخذوا زوجَها وأشعلوا النار فيه بعد أن قيَّدوه إلى كومةٍ من الخشب وصبُّوا عليه الوقود.

ثم إن الهيئة المكلَّفة طلبتْ منها مواجهةَ قائد الجماعة التي نكَّلتْ بولدها وزوجها، وهو رجلٌ يدعى فان دي بروك، في الوقت الذي كانت تتهيّأ للحكم عليه بعد أن اعترفت الجماعةُ بجرائمها. سألت الهيئةُ السيدةَ عمّا تراه عقاباً مناسباً.

فقالت: «أرغب في تحقيق ثلاثة أمور: أولاً أريد من السيد فان دي بروك أن يدلَّني إلى المكان الذي أحرقوا فيه زوجي كي أجمع ترابه وأقوم بدفنه حسب الأصول. وثانياً أريد منه أن يزور حيَّنا الفقير

مـرتين في الشـهـر، وأن يقـضي أيام زيارته عندي لأكون بمنْزلة أمٍّ له. وثالثاً أريد أن يعلم السيد فان دي بروك أنني قد عفوتُ عنه. وحبذا لو رافقني أحدٌ إلى السيد فان دي بروك لأعانقه حتى يتيقَّن من صدق صفحي عنه»[11].

إنني لا أنكر أن هذا النوع من الردّ أمرٌ غير مألوف البتة، ولا يبدو أنه ممكنٌ بالمقاييس الإنسانية. إلا أن كثيرين منّا لا ينظرون إلى هذا الأسلوب من التصرُّف حتى على أنه خيار. والحقيقة أنه ليس خياراً فقط، بل إنه ضربٌ من السلوك يجعلنا ننسلخ عن الحياة من أجل أنفسنا ويغمسنا في الحياة لمصلحة الآخرين.

وفي كتابه Father Joe يناقش الكاتبُ توني هيندرا هذه المفارقة مع أستاذه الذي يشير عليه بأن «الشجاعة الحقيقية لا تتمثل في أن نكره عدوَّنا أو أن نسعى إلى الانتقام منه أو قتله، بل في أن نحبَّه على رغم ما يحمل من كراهية ـ تلك هي الشجاعة الحقيقية»:[12]

على أن هذا النمط من السلوك لا يمكن أن يكافأ بأوسمةٍ أو بتقديرٍ ماليّ أو وظيفيّ؛ إنه خليقٌ بأن يغيِّر مسار حياتنا، بل وعالَمنا بأسره.

ووضَعَ كِنْت كيْث كتاباً بعنوان The Paradoxical Commandments، اقتبستْ منه الأم تريزا ما ورد فيه من وصايا، وعلَّقَتْها في مكانٍ بارزٍ من أحد دور الأيتام التي تديرها في كلكتا:

إذا كان الناسُ أنانيين وغير مستقيمين على المنطق والعقل، فأحِبَّهم على كل حال.

وإذا فعلتَ خيراً فاتُّهمتَ زوراً بأنك مدفوعٌ ببواعث خفيَّةٍ مشبوهة، فحذارِ أن تتوقفَ عن فعل الخير على كل حال.

وإذا كنتَ ناجحاً فأكسَبَكَ نجاحُك أصدقاء زائفين وأعداء حقيقيين، فتابعْ نجاحك على كل حال.

وإذا صنعتَ مع الناس معروفاً اليوم فنسوه غداً، فلا تحجم عن فعل الخير، بل داومْ عليه على كل حال.

وإذا كان الصدقُ والصراحة يجعلانك عرضةً للخطر والانتقاد، فكن صادقاً وصريحاً على كل حال.

وإذا تعرَّض كبارُ الرجال والنساء من أصحاب الأفكار العظيمة للنقد والتجريح من أصغر الناس شأناً، ففكِّرْ بعظائم الأمور ومعاليها.

وإذا كان الناسُ يساهِلون المستضعفين، فانتَصِرْ للمستضعفين على كل حال.

وإذا كان ما تبنيه طوال سنوات قد يُدمَّر بين عشيةٍ وضحاها، فلا يحملنَّك ذلك على التوقف عن البناء ـ ابنِ على كل حال.

وإذا كان الناسُ بحاجةٍ إلى المساعدة، إلا أنهم يهاجمونك إذا أنت ساعدتَهم، فلا تعجزْ، وانشطْ لمساعدة الناس على كل حال.

وإذا بذلتَ أنفَسَ ما تملك فخابَ رجاؤكَ، فأعطِ العالَم أنفسَ ما تملك على كل حال[13].

يقول كيث إن هذه الوصايا تتناول أموراً ليست مما توليها الثقافة أهميةً (كالشهرة والنفوذ والمال)؛ إنها تركِّز بدلاً من ذلك على بذل المساعدة وبث المحبة والسعي إلى التحسين والبحث عن أولئك الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض. ومن الواضح أن ذلك يستتبع انتقالاً من النظر إلى داخل أنفسنا والانغلاق فيها إلى النظر خارجها والانفتاح على الآخرين. ويقرِّر أننا عندما نُحدث تغييراً في حياة الآخرين، فإننا تلقائياً نُحدث تغييراً في حياتنا نفسها نحو الأفضل[14].

إن مساعدةَ الآخرين على أن يدركوا أن بالإمكان العيش على هذا النمط هي في حدِّ ذاتها من الخدمات الكبيرة التي نستطيع تقديمها إلى الناس من حولنا. وفي هذا السياق يذكر الطبيبُ النفسي سكوت بيك ـ وهو كاتبٌ معروف ـ خَبَرَ سيدةٍ مريضةٍ تشكو من كآبةٍ شديدة، وأنها اتصلت به في يوم موعدها معه لتخبره أنها لن تتمكن من الحضور بسبب عطلٍ طارئٍ في سيارتها. فأخبرها أنه مستعدٌّ لأخذها بنفسه على أن تنتظره في السيارة ريثما يقوم بعيادة مريضَيْن في مشفىً مجاور.

لدى وصولهما إلى المشفى وَقَعَ في خَلَد بيك أن يقترح على السيدة أن تتولى إجراء مكالماته نيابةً عنه. وبعد ساعةٍ ونصف عادت هذه السيدة إلى السيارة بحالة نفسيةٍ مبتهجة، وصرَّحتْ أن حديثها إلى المرضى وتشجيعهم قد رفع من معنوياتها كثيراً.

قال لها بيك: «الآن عرفنا كيف نخرجك من كآبتك. الآن وضعنا يدنا على علاج مشكلتك».

فأجابت: «إنك لا تتوقع مني أن أفعل ذلك كلَّ يوم، أليس كذلك؟»[15]

وأقول: كان بإمكاني أن أترك العراقيَّ المريض يموت من التهاباته البطنية، وكان باستطاعة أدولف كورز أن يستمر في كراهيته لقاتل أبيه، وكان في وسع بَدْ آندرسن أن يطالب بحكمٍ طويلٍ بالسجن على قاتل ولديه، كما كان في مقدور السيدة الجنوب ـ إفريقية أن تطالب بحبس قتلة أفراد أسرتها إلى الأبد.

هذه خياراتٌ مشروعة، وهناك خياراتٌ كثيرةٌ مشابهة يمارسها الناسُ في حياتهم كلَّ يوم في شتى أنحاء العالم. أما إذا كان حرصنا منصبّاً فعلاً على تحرّي معنىً وغايةٍ لحياتنا، فلا شك في أن ثمة خيارات أخرى، منها المحبة والعفو والخدمة والمعونة. فإذا أخذنا بها فقد أدركنا غايةَ وجودنا على هذه الأرض.

عندما عدتُ لزيارة عائلةِ شابو في كوسوفو وأنا مدنيّ، كان قد انقضى عامان على مقتل ابنتهما مريتا. وبعد أن أمضيتُ معهم سحابة اليوم، سألتُ الوالدين عن شعورهما الآن تجاه قاتل ابنتهما، الذي يقضي حكماً بالسجن مدى الحياة في إصلاحيةٍ فدراليةٍ في الولايات المتحدة.

سألتُهما: «هل من رسالةٍ منكما أحملها إليه لدى عودتي إلى الولايات المتحدة؟» فراح الزوجان يتناقشان فيما قلتُ بلغتهما الألبانية لبضع دقائق.

ثم إنني طرحتُ سؤالاً آخر:

«ألا تعتقدان أنه يستحق الموت جزاءً على ما فعل بابنتكما؟»

مزيد من المناقشة.

وأخيراً قال والد مريتا: «إنه يدفع ثمن ما جَنَتْ يداه. أما نحن فنرى أن لا طائل ولا غَناء من وجود والدتين تبكيان؛ تكفي واحدة!»

تلك صورةٌ نموذجية للحب كل حال.